

## ب. ترايسترام (١٨٦٣م)

ترجمة سليمان الموسى

قام هذا الباحث البريطاني برحلته هذه خلال عامي (١٨٦٣-١٨٦٤) وكان هدفه الرئيس - مع فريق عمل - البحث عن التاريخ الطبيعي للبلاد المقدسة. وقد تجوّل في فلسطين وشرق الأردن وفي أجزاء من سوريا ولبنان،... يقول:

إن أهمية بلدة تبنة تنبع من كونها الموضع الوحيد إلى الشرق من نهر الأردن الذي لا يزال يحتفظ بكيانه ومكانته ضد هجمات البدو.

وكانت تحصينات تبنة فيما مضى منيعة، ولكن ارتئي هدم أجزاء مهمة من أسوارها، حتى لا يرسل الأتراك حامية من جنودهم إليها، الأمر الذي سيكون أسوأ بكثير من غارة قد يشنها البدو بين فترة وأخرى. وأهل تبنة يخوضون المعارك في سبيل الدفاع عنها. وفي آخر معركة قبل ثماني سنوات أصيب الشيخ بثلاثة جراح وفقد ابنه الأكبر. كما أن القرى المحيطة بتبنة تدين بالولاء للشيخ يوسف (منطقة الكورة) فهو في واقع الأمر زعيم اتحاد من الفلاحين المترابطين في السراء والضراء.

أمضينا اليوم التالي (١٣ آذار) في تبنة، واستمر وصول البيض والحليب والخبز إلينا جميعاً بكميات وفيرة وسخاء، وعند العصر جاء الشيخ لزيارتنا، ثم دعاناً إلى منزله في زيارة خاصة، فوجدنا غرفة الضيافة مفروشة بالسجاد والوسائد الحريرية، وشاهدنا خشب البلوط (سَبَت) مزدانة بنقوش جميلة. ولم نلبث حتى قدم إلينا الشراب البارد وغلايين الدخان. هنا شاهدنا الفخامة والغنى في بلاد بعيدة عن المدينة حيث لا تزال المصاطب من الطين، ولا يزال الطعام يقدم في بواطٍ (جمع باطية) من الخشب. وفي أثناء الحديث سمعت

الشيخ يوسف يقول: إنه يفضل البدو على الأتراك، لأن البدو يحافظون على وعودهم. وعند عودتنا إلى خيامنا رافقنا خادم يحمل هدية من الشيخ تتألف من جلود ثلاثة نمور، اصطادها الأهليون في المناطق القريبة، وفي المساء قدمنا للشيخ هدية عبارة عن مجهر (ناظور).

### ليلة في سوف:

غادرنا تبنة يوم ١٤ آذار وسرنا في هضاب تكسوها الأشجار الجميلة. وقد لاحظنا جمال الطبيعة هنا، إذ يسقط المطر بكميات أكبر مما يسقط في فلسطين، ويعود السبب إلى الغابات الكثيفة في هذه المنطقة، كما تكثر الينابيع التي يعيش فيها السمك. وخلاصة القول إن هذه المنطقة ذات جمال طبيعي رائع يستحق الجهد الذي يبذله السائح كي يصل إليها. بعد أن سرنا ساعة ونصف وصلنا إلى خرائب قرية (دوية) التي دمرها إبراهيم باشا، ولم يقطنها أحد بعد ذلك، ثم وصلنا إلى بركة عبّين حيث تناولنا طعام الغداء وارتوت الدواب من الماء. وفي المساء وصلنا إلى بلدة سوف فوجدنا شيخها غائباً. ورفض الناس الذين التقينا بهم أن يرسلوا معنا دليلاً أو حارساً إلى جرش ثم جاء الشيخ نائب زعيم البلدة، وعرض علينا شهادات من سائحين أجانب مروا سابقاً بهذه المنطقة وتجمهر الناس حول خيامنا بصورة بعثت القلق في نفوسنا. وأبرزنا الرسالة التي كنا نحملها من بلدة تبنة، فلم تكن ذات جدوى. ثم وجدنا أنه لا بد من استخدام ستة رجال من أهل البلد لكي يقوموا على حراستنا في أثناء الليل، إضافة إلى أن بعض أفراد جماعتنا ظلوا ساهرين أيضاً. في صباح يوم ١٥ آذار شاهدنا جمهوراً كبيراً من الرجال والصبية قد احتشدوا حول خيامنا، وكان بعضهم يحملون أسلحة. وحدث شجار واشتباك بين أحد القرويين وواحد من أصحاب البهائم التي معنا، وكاد يكون هناك إطلاق نار، ثم وصلنا إلى ناحية بني عبيد ومنها إلى الغرب باتجاه قرية الطيبة. وكم كانت دهشتنا عندما تطلعنا بواسطة النواظير إلى جهات بصرى وشاهدنا السهول الواسعة تترعرع فيها مزروعات القمح. هذه هي أجراء

بلاد العرب الشمالية. هنا كانت ثروة سوريا الزراعية في أيام الرومان، وهنا كان المديانيون كما هو الحال بالنسبة لبني صخر في أيامنا هذه يطلقون الآلاف من جمالهم ترعى في السهول الخصيبة.